الإتصال الثقافى بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية فى عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) (٨١٣ - ٨٣٣م)

د. عبد الرحمن أحمد سالم

يحاول هذا البحث أن يناقش الجوانب الأساسية لقضية مهمة من قضايا العلاقات الإسلامية البيزنطية فى العصور الوسطى ، ألا وهى قضية التبادل الثقافى . وربما كانت أهمية هذا الموضوع راجعة إلى أن الاهتمام بعلاقات الحرب والصدام بين دولة الخلافة والامبراطورية البيزنطية (أو دولة الروم) كاد لا يفسح مجالا للحديث عن صور العلاقات الأخرى بين الجانبين . ولعل قضية التبادل الثقافى تأتى على رأس تلك العلاقات . وإنه لمِمَّا يثير الدهشة والإعجاب معا أن العلاقات الثقافية بين دولة الخلافة وامبراطورية الروم استطاعت أن تشق لنفسها طريقا وسط غبار المعارك . وقد عبرت تلك العلاقات عن نفسها بطرق شتى وسلكت إلى غايتها قنوات متعددة . ولاشك أن تلك العلاقات كان لها مردودها المؤكد على الحياة الثقافية فى الجانبين الإسلامى والبيزنطى ؛ وهو ما سنحاول تحديد أبعاده فى الصفحات القادمة . وقد يكون من المناسب فى مقدمة هذا البحث أن نتناول بأكبر قدر من الإيجاز الوضع السياسى فى الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية خلال الفترة موضوع المناقشة ، لنتبع ذلك بالموضوع الأساسى وهو العلاقات الثقافية بين الجانبين .

أولا : الوضع السياسى :

استمر الخليفة المأمون (عبد الله بن هارون الرشيد) فى منصبه عشرين عاما تقريبا (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) . وقد تعاقب فى نفس الفترة على عرش الامبراطورية البيزنطية ثلاثة أباطرة :

الأول : هو ليو الخامس الأرمينى Leo V the Armenian الذى حكم من سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٢٠م .

والثانى : هو ميخائيل الثانى Michael II مؤسس الأسرة العمورية فى الامبراطورية البيزنطية(١) . وقد حكم من سنة ٨٢٠ إلى سنة ٨٢٩م .

(١) تستمد الأسرة العمورية اسمها من مدينة «عمورية» بآسيا الصغرى ، وهى المدينة التى ينتمى إليها =

أمـا الثـالث : فهو ابنه ثيوفيل Theophilus الذى حكم من سنة ٨٢٩ إلى سنة ٨٤٢م وتعاصر مع المأمون خلال أربع سنوات من حكمه (٨٢٩ - ٨٣٣م)(١) .

وقد كانت الخلافة - خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة - تعانى من وطأة المشاكل الخطيرة التى خلفتها فتنة الأمين والمأمون ، تلك الفتنة التى استمرت أربع سنوات (١٩٤ - ١٩٨هـ/ ٨١٠ - ٨١٣م) وأحدثت شرخا عميقا فى تماسك الجبهة الداخلية للخلافة . ورغم أن المأمون انتصر فى الحرب ضد أخيه وأصبح خليفة المسلمين بلا منازع فقد كان عليه أن يواجه عبئا ثقيلا يتمثل فى علاج ما ترتب على تلك الأحداث المؤلمة من آثار . ولا يعنينا هنا أن نتتبع تلك الآثار ولا أسلوب المأمون فى علاجها ، ولكن الذى يعنينا من ذلك فى هذا السياق شئ واحد هو توقف الأنشطة العسكرية المباشرة للمسلمين على الجبهة البيزنطية لمدة عشرين عاما تقريبا (١٩٤ - ٢١٥هـ/ ٨١٠ - ٨٣٠م)(٢) .

وقد كانت الامبراطورية البيزنطية أيضا خلال تلك الفترة تئنُّ تحت وطأة المشاكل الداخلية والخارجية . وهذا يفسِّر السبب الذى جعل الامبراطورية لا تستغل فرصة الأزمات الداخلية فى الخلافة بتوجيه ضربة عسكرية على الحدود . فالامبراطور ليو الخامس كان يواجه على الصعيد الخارجى مشكلة البلغار ؛ وعلى الصعيد الداخلى مشكلة اللاأيقونية Iconoclasm . أما بخصوص المشكلة الأولى فقد تمكن ليو بعد جهد من أن يعقد معاهدة صلح مع القائد البلغارى عمر تاج مدتها ثلاثون سنة ، وكان ذلك فى عام ٨١٥م(٣) . أما بخصوص المشكلة الثانية فقد كان الأمر أكثر تعقيدا ؛ ذلك أن مشكلة

= أباطرة هذه الأسرة . وهذا هو السبب الذى جعل الخليفة المعتصم يختارها هدفا لغزوه فى سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م) عندما أراد أن يؤدب الامبراطور ثيوفيل أحد أعضاء هذه الأسرة .

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأباطرة البيزنطيين الثلاثة الذين تعاصروا مع المأمون ارجع إلى :

- A . A . Vasiliev , History of the Byzantine Empire , p . 272 , G . Ostrogorsky , History of the Byzantine State , pp . 200 - 206 .

(٢) تجدر الإشارة إلى أنه قد حدثت بعض الغارات الإسلامية على الحدود البيزنطية من سنة ١٩٤ إلى سنة ١٩٧هـ على يد ثابت بن نصر حاكم إقليم الثغور . ولكن الواضح أن هذه الغارات كانت ذات طبيعة محدودة جدا ، وأغلب الظن أنها تمت بمبادرة شخصية من ثابت بن نصر ، أى دون إذن الأمين . ثم توقفت الأنشطة بصورة شبه كاملة على الجبهة البيزنطية حتى استأنفها المأمون سنة ٢١٥هـ . انظر حول ذلك : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ؛ ص ٥٣٧ ؛ وتاريخ الطبرى ، جـ ٨ . ص ٦٢٣ .

(٣) S . Runciman , A History of the First Bulgarian Empire. p.72 .

اللاأيقونية لم تستنفد جهد ليو الخامس فحسب ، بل استنفدت كذلك جهد خليفتيه ميخائيل الثانى وثيوفيل . وسوف أناقش مشكلة اللاأيقونية فيما بعد ، ليس لذاتها ، بل فيما يتصل بعلاقتها بالإسلام ، وعلى الأخص بمذهب المعتزلة الذى مثَّل المذهب الدينى الرسمى للخلافة فى تلك الفترة . ويكفينا هنا أن نشير إلى أن اللاأيقونية – فى طورها الثانى الذى بدأ سنة ٨١٥م(١) – كانت من أكثر الموضوعات سخونة فى امبراطورية الروم فى الفترة التى نُناقشها الآن ، وكانت لها انعكاساتها على العلاقات الثقافية بين الامبراطورية والخلافة .

ومن هنا يمكن القول بأن ميخائيل الثانى كان يواجه فى الداخل مشكلة الآثار الخطيرة المترتبة على سياسته اللاأيقونية . وقد تمثل ذلك على وجه الأخص فى ثورة توماس الصقلبى Thomas the Slav ، تلك الثورة التى رفعت شعار الأرثوذكسية ضد مذهب اللاأيقونية واستطاعت أن تضم تحت لوائها أتباعا عديدين من أجناس مختلفة ، بل إنها تلقتْ فى بعض مراحلها تأييد الخليفة المأمون . وهكذا مثلت هذه الثورة تهديدا داخليا وخارجيا فى وقت واحد . والواقع أن تأييد المأمون لتوماس لم يكن متسقا مع معتقداته المعتزلية التى تشابهت فى طبيعتها مع اللاأيقونية فى دولة الروم كما سنوضح بعد قليل . ولهذا فإن تأييد المأمون لثورة توماس ينبغى أن يفسَّر من زوايا سياسية بحتة(٢) . ولكن باستثناء تأييد المأمون لثورة توماس – وهو التأييد الذى تُوِّج بالفشل – فإن حكم ميخائيل الثانى كله خلا تقريبا من أى توترات أو مواجهات على الجبهة الإسلامية .

أما حكم الامبراطور ثيوفيل فقد كان مختلفا تماما . لقد شهد هذا الحكم استئناف المواجهات العسكرية بين الامبراطورية والخلافة على مستوى فى غاية الخطورة . والحقيقة أن المأمون هو الذى كان مسئولا عن إثارة هذه المواجهات بعد أن شعر أن مشاكله الداخلية

(١) بدأ الطور الأول للحركة اللاأيقونية فى سنة ٧٢٦م على أرجح الأقوال ، على يد ليو الثالث مؤسس الأسرة الأيسورية فى الامبراطورية البيزنطية ، وانتهى فى سنة ٧٨٠م بوفاة ليو الرابع . أما الطور الثانى للحركة فقد بدأ فى سنة ٨١٥م كما أشرنا ، وانتهى فى سنة ٨٤٣م فى أوائل عهد الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ – ٨٦٧م) آخر أباطرة الأسرة العمورية . انظر حول ذلك :

- Cyril Mango, Historical Introduction, published in (Iconoclasm), pp. 1 - 6 .

(٢) تراجع تفصيلات هذه الثورة فى :

- P . Lemerle, "Thomas le Slave", in "Travaux et Memoires", vol . I (1965), pp . 255 - 297 .

الضاغطة قد بدأت تتلاشى أو تخفُّ حدتها . ومن هنا فقد أخذ يتلمّس الاتهامات لثيوفيل حتى يبرر هجومه عليه . فقد آخذه بأنه استقبل فى بيزنطة عددا كبيرا من طائفة الخُرّمية الهاربين من أرض الخلافة ووطّنهم فى نواحى الامبراطورية ليستغلهم فى هجماته ضد الخلافة(١) . ولكن هذه التهمة لم تكن إلا ذريعة تتيح للمأمون أن ينفذ مخططاته العسكرية ضد الإمبراطورية البيزنطية . وهكذا شغل المأمون نفسه فى السنوات الثلاثه الأخيرة من حكمه بمجموعة من العمليات العسكرية الخطيرة والناجحة على الجبهة الشرقية . ورغم أن نتائج هده العمليات لم تكن حاسمة فإنه يبدو أن المأمون كان يخطط من ورائها لمشروع خطير ضد القسطنطينية ذاتها . ولكن وفاته المفاجئه بالقرب من طرسوس فى سنة (٢١٨هـ - ٨٣٣م) - وهو فى طريقه لغزو الروم - أجهضت هذا المشروع .

ثانياً : العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة فى عصر المأمون :

تمهيد :

قد يكون من الضرورى أن نُمَهِّد لهذا الموضوع بمقدمه أساسية تتناول باختصار تطور العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة قبل حكم المأمون ، وذلك حتى تتضح لنا الملامح الأساسية لتلك العلاقات فى عصر المأمون :

ولعلنا لا نجاوز الحقيقه إذا قلنا إن التأثير الثقافى البيزنطى على الحياة العربية يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام . ولاشك أن إمارة الغساسنة بالشام لعبت دورا مهما فى هذا التأثير ؛ فقد كانت حلقة وصل بين الثقافة البيزنطية والبيئة العربية ، كما مثّل التجار العرب وسيلة من وسائل هذا الوصل الثقافى . وهكذا يمكن القول إنه بظهور الإسلام لم تكن الثقافة البيزنطية غريبة تماما على البيئة الإسلامية . وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية فى عصر عمر بن الخطاب لم يغير المسلمون لغة الدواوين فى البلاد المفتوحة إلى اللغة العربية . وهكذا ظلت اللغة اليونانية فى الشام ومصر لغة التعامل فى دواوين الحكومة ، كما كان الشأن بالنسبة للغة الفارسية فى البلاد التى كانت خاضعة لحكم آل ساسان . وقد تطلب ذلك بالطبع أن تُبقى الخلافة على الموظفين الذين كانوا يمارسون أعمالهم فى تلك البلاد قبل ظهور الإسلام .

ولكن التأثير الثقافى البيزنطى على دولة الخلافة شهد تحولا ملحوظا فى عهد الخليفة

(١) C F., S. Ameer Ali , A short History of the Saracens , p. 272 .

معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠هـ / ٦٦١ - ٦٨٠م) ؛ فقد استخدم معاوية على شئونه المالية المسيحى السريانى سرجيوس المشهور فى مصادرنا العربية باسم سرجون بن منصور[١] ، وهو والد يوحنا الدمشقى على الأرجح[٢] . وهكذا قام سرجيوس بدور وزير المالية للدولة الإسلامية كلها[٣] . صحيح أن رعايا الخلافة من المسيحيين السريان لم يكونوا بيزنطيين أو يونانيى الأصل ، ولكنهم مع ذلك تمثلوا كثيرا من الثقافة اليونانية والبيزنطية فأصبحوا بيزنطيين حضارةً وصاروا أداة جيدة لنقل ثقافة العالم البيزنطى إلى دولة الخلافة . ومما هو بعيد الدلالة فى هذا المقام أن بعض مصادرنا التاريخية تطلق على سرجون هذا لقب «الرومى» . فيقول الطبرى مثلا فى معرض حديثه عن معاوية : «وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومى»[٤] . وهكذا كانت الثقافة اليونانية البيزنطية التى تمتع بها سرجون بن منصور السريانى أساسا كافيا جعل بعض المؤرخين العرب يعدونه واحدا من الروم . وقد حذا الخلفاء الأمويون اللاحقون حذو معاوية وعينوا هؤلاء السريان أصحاب الثقافة الهيلينية فى المناصب الحكوميه العليا . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبرز رجال اللاهوت والمدافعين عن الاتجاه الأرثوذكسى خلال الطور الأول للحركة اللاأيقونية كان هو يوحنا الدمشقى الذى أشرنا إليه الآن . وقد تولى يوحنا منصبا حكوميا رفيعا فى بلاط الأمويين[٥] ، وكان صاحب تأثير فكرى فى البيئة الإسلامية مما دفع البعض إلى أن يزعم أنَّ تأثيره هذا أثَّر فى تكوين المذهب الاعتزالى فى مراحله المبكرة[٦] .

وإذا كان المسيحيون السريان من رعايا الخلافة قد مثَّلوا قناة مهمة لنقل الثقافة البيزنطية إلى المسلمين فى العصر الأموى فقد مثلت المحاولة التى تبناها خالد بن يزيد بن معاوية فى مجال الترجمة قناة أخرى مهمة فى هذا الصدد . وقد كان خالد مهتما فى الأساس بمجال

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٠ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ١١ .

(٢) انظر : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، تأليف ديلاسى أوليرى ، ترجمة د . تمام حسان ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٠ . وانظر أيضا : الكامل لابن الأثير ، جـ ٤ ، ص١١ .

(٥) يرجح أوليرى أنه عمل مستشارا أول للخليفة هشام بن عبد الملك . انظر : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ص ٢١٢ .

(٦) راجع : الحسن البصرى لإحسان عباس ، ص ١٦٥ .

العلوم فى التراث اليونانى وخاصة علم الكيمياء ، وكان يسمى حكيم آل مروان(١) . يروى ابن النديم أن خالداً «أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصَّنْعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة»(٢) .

ويضاف إلى ذلك أن الأمويين لم يترددوا فى طلب المساعدة الفنية المباشرة من البيزنطيين عندما كانوا يرون ذلك ضروريا . وتروى مصادرنا فى هذا السياق أن الوليد بن عبد الملك عندما شرع فى بناء مسجد دمشق أرسل إلى امبراطور الروم(٣) يطلب عونه فى هذا المشروع ، فأرسل إليه الامبراطور مائتين من صُنَّاع الروم المهرة(٤) . كما طلب الوليد أيضا مساعدة الامبراطور عندما كان بصدد توسيع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعانه الامبراطور «بمائة عامل ، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملا ... فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز »(٥) وقد كان عمر واليا على المدينة فى ذلك الوقت .

ولم يتوقف هذا التعاون الحضارى بين البيزنطيين والمسلمين بمجيئ العباسيين ، بل إن دائرة هذا التعاون قد اتسعت . وقد يبدو ذلك غريبا لأنه من المعروف أن التأثير الفارسى على الأسرة العباسية كان قويا متعدد المظاهر . ولعل من بين مظاهره نقل عاصمة الخلافة من

---

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الأباطرة البيزنطيون الذين عاصروا الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م) هم : جستنيان الثانى (٧٠٥ - ٧١١م) ، وفيليبيكوس (٧١١ - ٧١٣م) ، وأناستاسيوس الثانى (٧١٣ - ٧١٥م) . ولما كانت مشروعات الوليد المعمارية قد بدأت فى أوائل حكمه فإن الامبراطور المقصود هنا هو جستنيان الثانى .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٩ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ . ويذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه «الذخائر والتحف» ، ص ١٠ أن ملك الروم أرسل إليه ألف فاعل . فلعله أرسل إليه هؤلاء الفَعَلَة بالإضافة إلى الصنّاع المهرة .

(٥) تاريخ الطبرى ، جـ ٦ ، ص ٤٣٦ . ويروى أيضا أن الوليد طلب المعونة الفنية من امبراطور الروم عندما أراد أن يزين المسجد الأقصى بالفسيفساء . يراجع فى ذلك :

- A . A . Vasiliev, (Byzantium and Islam), published in : Byzantium : An Introduction to East Roman civilization, pp . 308 - 325 .

سوريا إلى العراق معقل الثقافة الفارسية . ولكن العباسيين مع ذلك لم يسمحوا لهذا النفوذ الفارسى أن يعزلهم عن التأثيرات الثقافية الأخرى للحضارات المعاصرة لهم وفى مقدمتها حضارة البيزنطيين . وقد يبدو مدهشا حقا أن هذا الموقف الثقافى الليبرالى قد حظى بكل التشجيع من أسرة البرامكة ، أقوى الأسر الفارسية نفوذا خلال الخمسين عاما الأولى من الخلافةالعباسية(١) . والحق أن هذا الموقف الليبرالى هو الذى أضاف للحضارة العباسية أبعادها الرحبة ومكّنها من أن تستوعب المكونات المختلفة للثقافات المعاصرة ، ثم أن تقدم بعد وقت غير بعيد ثقافتها الخاصة المتميزة .

أما فيما يتعلق بموقف العباسيين تجاه الحضارة البيزنطية قبل حكم المأمون فإن الشخصيتين اللتين كان لهما إسهام بارز فى محاولة تقديم بعض جوانب هذه الحضارة للمسلمين هما الخليفة الثانى والخليفة الخامس : أى أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد . ويرجع للمنصور الفضل فى أنه أمر بترجمة الأعمال اليونانية المهمة المتصلة بمجالى اهتمامه الرئيسيين وهما الطب والفلك(٢) . كما أن المنصور كان أول من قدم إلى البلاط العباسى رأس الأسرة السريانية النسطورية الشهيرة وهو جورجيس بن بختيشوع أكبر أطباء عصره(٣) . وعن طريق جورجيس هذا ثم ذريته من بعده تعرف المسلمون على جوانب مهمة من إنجازات العقل اليونانى فى مجال الطب . صحيح أن هذه المجالات العلمية التى اهتم بها المنصور هى فى الواقع مجالات يونانية كلاسيكية وليست مجالات بيزنطية بالمعنى المحدد للكلمة ، ولكن لا ينبغى أن يفوتنا هنا أن البيزنطيين كانوا يعتبرون أنفسهم فى ذلك الوقت ورثة التراث اليونانى وسدنته ، وكانوا يرون أن من يهتم بهذا التراث إنما يهتم بجزء لا يتجزأ من حضارتهم وموروثاتهم .

أما هارون الرشيد فقد مضى خطوات أبعد من جده المنصور فى هذا الاتجاه . ومما تنبغى ملاحظته هنا أن الأسرة السريانية النسطورية التى مثلها جورجيس بن بختيشوع فى عهد

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ ، وانظر أيضاً : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب لأوليرى ، ص ٢٢٨ .

(٢) لمزيد من التفصيل حول اهتمامات المنصور العلمية ، ورعايته لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية راجع : تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان ، جـ ٣ ، ص ١٥٥ – ١٥٧ .

(٣) راجع ترجمته فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ، ص ١٠٩ – ١١١ .

المنصور قد استمرت وازدهرت فى عهد الرشيد وأصبحت آنذاك ممثله فى عميدها الطبيب الشهير جبريل(١) . وقد بقيت هذه الأسرة فى عهد الرشيد محافظه على تقاليدها الأولى فى رعاية واحتضان الطب اليونانى . ولهذا فليس من الغريب أن نقرأ أن جبريل كان يطلق على الطبيب اليونانى الذائع الصيت جالينوس لقب «أستاذى الأكبر» . ومما يروى فى هذا الصدد أنه سأل الرشيد – وهو بصحبته فى إحدى غزواته ضد الروم – أن يسمح له بزيارة قبر جالينوس لأن هذه الزيارة فى تقديره كان من شأنها أن تميزه عن أقرانه(٢) . وهكذا استمرت هذه الأسرة فى القيام بدورها المتميز فى ترجمة الأعمال الطبية اليونانية إلى العربية فى عصر الرشيد . ومما ينبغى ذكره فى هذا السياق أن بعض المصادر اليونانية التى ترجمت إلى العربية قد استولى عليها المسلمون من مدينتى أنقرة وعمورية خلال بعض الغزوات التى قام بها الرشيد ضد البيزنطيين ، وقد كانت هذه المصادر فى جملتها طبية(٣) .

ولابد هنا من طرح بعض الملاحظات المتصله بالعلاقات الثقافية بين المسلمين والبيزنطيين قبل حكم المأمون :

١ – وأولى هذه الملاحظات أن الخلافة كانت خلال هذه الفترة – بصفة عامة – تتجه إلى ناحية الأخذ من الثقافات الأخرى واستيعاب عناصر هذه الثقافات لتحولها بعد ذلك إلى جزء من نسيجها الثقافى الخاص . وقد كان من أبرز هذه الثقافات الثقافة الفارسية والثقافة البيزنطية .

٢ – والملاحظة الثانية أن محاولات الأخذ من الثقافات الأخرى قبل عصر المأمون كانت متقطعة وغير منتظمة . لقد كانت معتمدةً أساسا على الميول الشخصية والأنشطة الفردية لبعض الخلفاء أو الدارسين أو كبار الشخصيات فى الدولة .

(١) هو جبريل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع . راجع ترجمته فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ، ص ٩٣ – ١٠٢ ؛ وفى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، جـ ٢ ، ص ٤٣ – ٦٢ . وحول هذه الأسرة بصفة عامة ، وصلة جبريل بالرشيد بصفة خاصة ارجع إلى مادة «بختيشوع» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بروكلمان ، جـ ٦ ، ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ، ص ٩٥ – ٩٦ .

(٣) يرجع فى ذلك إلى ترجمة يوحنا بن ماسويه فى : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ . وقد اضطلع أيضا يوحنا بن ماسويه بدور بارز فى الترجمة فى عهد الرشيد وخلفائه .

٣ - والملاحظة الثالثة أن الاتصال الثقافى خلال تلك الفترة كان يدور - بصفة رئيسية - حول النواحى العلمية من التراث اليونانى كالكيمياء والفلك والهندسة والطب .

عصر المأمون :

بدأت العلاقات الثقافية بين المسلمين والبيزنطيين تأخذ منعطفا حاسما فى عصر المأمون. وقد كان هذا التحول راجعا إلى عاملين أساسيين :

١ - أما أولهما فهو أن الأنشطة الثقافية السابقة - وخاصة فى العصرين الأموى وأوائل العباسى - بدأت تقدم حصادها فى عصر المأمون .

٢ - وأما ثانيهما فيكمن فى الخصائص الثقافية النادرة التى تمتعت بها شخصية المأمون . وقد لا نكون مبالغين إذا عددنا المأمون واحدا من أكثر الخلفاء تفتحا وأصالة فكرية على امتداد التاريخ الاسلامى . ولولا موقفه المتشدد فى قضية خلق القرآن وامتحانه الناس فى عقائدهم لأصبح هذا الخليفة مثالا لا نظير له فى التاريخ الوسيط لرحابة الأفق والإيمان بأن الفكر الإنسانى لا يعرف الحدود . ومما أثر عنه قوله : «لا نزهة أكثر من النّظر فى عقول الرجال»(١) . ولعل هذا يشرح لماذا كان المأمون حريصا على أن يدير حوارات فكرية مع علماء متنوعين يمثلون ثقافات مختلفة(٢) .

وسوف ندير حديثنا فى الصفحات التالية حول قضيتين أساسيتين من قضايا العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة فى عصر المأمون : أولاهما تتعلق بأهمّ جوانب تلك العلاقات ؛ والثانية تتعلق بالقنوات الرئيسية التى تبودلت تلك العلاقات من خلالها .

أ - أهم جوانب العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة فى عصر المأمون :

الواضح أن الفلسفة جاءت على رأس الموضوعات التى أثارت اهتمام المسلمين بالتراث البيزنطى (أو بعبارة أدق : بالتراث اليونانى الذى ادعاه البيزنطيون) ابتداء من تلك الفترة . ولعلنا لاحظنا فيما مضى أن اهتمام المسلمين بالتراث اليونانى فى العصر الأموى والعباسى حتى خلافة المأمون كاد ينحصر فى المجالات العلمية الخالصة كالطب والفلك والكيمياء

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٧٨ .

(٢) انظر مثلا : تاريخ الطبرى ، جـ ٨ ، ص ٥٧٧ ، وأصول الدين للبغدادى ، ص ٣٠٩ .

والهندسة . وكان المسلمون يجدون حرجا شديدا فى اقتحام مجالات فلسفية دخيلة يحسون أنها قد تكون غريبة على روح عقيدتهم وثقافتهم . ومع ذلك يمكن القول إن ما ترجمه المسلمون فى مجال الأعمال العلمية اليونانية هيأهم ذهنيا لقبول الأعمال الفلسفية لأن الفلسفة لم تكن منبتة الصلة بهذه العلوم . وهكذا شهد عصر المأمون ذلك التحول فى مجال الاهتمامات الفكرية بالتراث اليونانى البيزنطى .

وتروى بعض مصادرنا قصة طريفة فى محاولة منها لتفسير سر اهتمام المأمون بالفلسفة اليونانية ؛ فهى تذكر أن المأمون رأى أرسطو فى أحد أحلامه فطرح عليه سؤالا حول العلاقة بين العقل والدين . وقد أكد أرسطو للمأمون فى إجابته أنه لا يوجد أى تناقض بين الاثنين بل إن العقل يؤكد الدين ويدعمه . وقد كان هذا الحلم حافزا للمأمون – كما تذكر الرواية – فى ترجمته للأعمال اليونانية الفلسفية(١) . ومع أنه ليس من اليسير علينا أن نعتقد أن اهتمام المأمون بترجمة الأعمال الفلسفية من اليونانية إلى العربية كان استجابة لحلم رآه فإنه من المؤكد أن هذا الحلم – لو صحت الرواية – كان انعكاسا لاهتمامات سابقة وقوية بالفكر الفلسفى اليونانى ، فالمعروف أن أحلام الإنسان مستمدة فى الغالب مما يسيطر عليه من أفكار ومشاغل ذهنية . فقد كانت الفلسفة إذن تمثل بعض اهتمامات المأمون الفكرية فى ذلك الوقت . والواقع أن هذا الحلم الذى رويناه الآن يعكس هدفا من أهم الأهداف وراء دراسة المفكرين المسلمين للفلسفة اليونانية فى تلك الفترة . لقد تمثل هذا الهدف فى العمل على التوفيق بين العقل والنقل وفى تطبيق الأساليب الفلسفية فى مجال الجدل الدينى .

فليس صحيحا إذن ما يدعيه «ديلاسى أو ليرى» من أن شغف المأمون بالفكر الفلسفى اليونانى كان يمثل نوعا من التحلل الدينى ، فهو يذكر أن المأمون «طبق القواعد الفلسفية على العقائد الإسلامية ، ولاشك أن آخرين قد فعلوا نفس الشئ ، ومنهم أتقياء صالحون ،

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ٢٤٣ . ويروى ابن أبى أصيبعة أن المأمون رأى فى منامه شيخا بهىّ الشكل يخطب على منبر ويقول : أنا أرسطو طاليس ! فلما انتبه المأمون من منامه سأل عن أرسطو طاليس ، فقيل له : رجل حكيم من اليونانيين ! فأحضر حنين بن إسحاق وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية . ومما يرويه ابن أبى أصيبعة أيضا أن المأمون عندما رأى أرسطو طاليس فى منامه سأله عن الحسن ، ماهو ؟ فأجابه . «فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب» . طبقات الأطباء . جـ ٢ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ . والملاحظ مما يرويه ابن أبى أصيبعة أنه يحاول أن يجعلنا نعتقد أن المأمون لم يسمع عن أرسطو قبل هذا المنام ! وهذا أبعد ما يكون عن التصور .

ولكنهم كانوا حريصين على الاحتفاظ بطلاء خارجى حين تناولوا الأمور الدينية بكل احترام، وليس كذلك المأمون»(١) . والحق أنه لا يوجد شاهد واحد يشير إلى أن المأمون لم يكن يتناول المسائل الدينية بكل احترام ، بل إن القضية التى أدانه من أجلها كثير من المفكرين ، وهى قضية خلق القرآن ، لم تكن تعكس تحللا دينيا بل كانت تعبر عن حرص المأمون البالغ على أن يحتفظ بمفهوم التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى خاليا من أى شائبة . ولكن المأمون أخطأ فى محاولة فرض وجهة نظره بسيف السلطان .

يمكننا أن نقول إذن – على عكس ما يدَّعيه أوليرى – إن اهتمام المأمون بدراسة الفكر الفلسفى اليونانى كان يهدف إلى الدفاع عن الدين عن طريق درء التعارض بين المنقول والمعقول . ولعل هذا الهدف ذاته هو الذى جعل المسلمين – ابتداء من تلك الفترة – يوجهون اهتماما ملحوظا لدراسة المنطق اليونانى بصفة عامة والقياس المنطقى بصفة خاصة . وهذا الفريق الذى اهتم بهذا الجانب من التراث العقلى اليونانى هو نفسه الذى وضع الأسس المنطقية لعلم الكلام الإسلامى وطبق قواعد منطق أرسطو فى الدفاع عن كثير من قضاياه . وما من شك فى أن هذا يشرح السبب الذى جعل أرسطو يحتل مكانه متميزة بين الكثيرين من فلاسفة الإسلام ، فعرف لديهم بلقب «المعلم الأول»(٢) . أما على مستوى المدارس الكلامية الإسلامية فقد وجه «المعتزلة» جهدا كبيرا لدراسة منطق أرسطو محاولةً منهم لتوظيفه فى ميادين الحجاج العقلى دفاعا عن العقيدة الإسلامية . وكان من أكبر رجال المعتزلة فى ذلك الوقت ، الذين تبنوا ذلك المنهج ، المأمون نفسه . كما يمكن القول إن إبراهيم ابن سيار النظام وأبا الهذيل العلاف كانا من أبرز أعلام المعتزلة الذين مثلوا هذه المدرسة أصدق تمثيل فى تلك الفترة .

ولعل السؤال الذى يتبادر إلى الذهن هنا هو : هل كان الهدف الدينى فى دراسة الفلسفة اليونانية والمنطق هو الهدف الوحيد وراء اهتمام المسلمين بهذا اللون من التراث اليونانى؟

الواضح أنه لا يمكن الزعم بذلك ؛ فقد وجد مفكرون آخرون فى المجتمع الإسلامى كانوا حريصين على أن يشغلوا أنفسهم بهذا اللون من الدراسة بغرض المعرفة المجردة حتى لو

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ص ٢٤٤ .

(٢) راجع مادة «أرسطو طاليس» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم ڤالتزر ، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ .

اصطدمت هذه المعرفة المجردة فى بعض نواحيها مع الإسلام ذاته ، ويعلق أحد المؤرخين المتأخرين – وهو المقريزى – على هذا الاتجاه الذى تبناه بعض المفكرين فى المجتمع الإسلامى بقوله : «كان المأمون عبد الله بن هارون سابع خلفاء بنى العباس ببغداد لما شغف بالعلوم القديمة بعث إلى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفه وأتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سنى الهجرة ، فانتشرت مذاهب الفلاسفة فى الناس واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار ، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر فيها والتصفُّح لها ، فانجرّ على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة مالا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفرا إلى كفرهم »(١) . فالواضح من هذا النص أن المقريزى لم يعتبر دراسة الفلسفة اليونانية والمنطق سلاحا فى يد فرقة كالمعتزلة تنافح به عن الدين وتحاول التوفيق بين العقل والنقل بل اعتبرها باب فساد لكثير من الفرق الضالة استفحل به ضلالهم وكفرهم ! ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن الاتجاه العقلى البحت فى دراسة الفلسفة اليونانية سيظهر بوضوح فى مرحلة تالية لتلك الفترة التى نعالجها الآن .

وإذا كانت دراسة الفلسفة اليونانية قد مثلت مجالا تباينت فيه وجهات نظر المدارس الإسلامية المختلفة : ما بين تقليدية معارضة وتجديدية مؤيدة ، فإن الطب – مع أنه كان يعتبر أحد علوم الحكمة التى اتسعت لها عباءة الفلسفة – لم يلق معارضة بين فئات المجتمع الإسلامى على اختلافها . وقد بدأت ترجمة الأعمال الطبية – كما أشرنا إلى ذلك آنفا – فى خلافة أبى جعفر المنصور ، ولكن نطاقها اتّسع فى عهد المأمون ، بل إن بعض الكتب التى ترجمت قبل ذلك أعيدت ترجمتها فى هذه الفترة الأخيرة(٢) . ومما يلفت النظر أن الإلمام بالطب اليونانى أصبح اتجاها عاما ليس لدى المتخصصين فحسب بل لدى المفكرين المسلمين بصفة عامة . ولو تصفحنا أعمال مشاهير الكتاب فى تلك الفترة ، كالجاحظ وابن قتيبة ، لوجدنا فيها مصداقا لما نقول . وربما جاز لنا أن ندعى أن أطباء يونانيين من أمثال جالينوس Galen وأبو قراط Hippocrates كانوا يتمتعون بشهرة فى العالم الإسلامى قد تفوق شهرتهم فى العالم البيزنطى .

(١) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٥٧ .

(٢) C. F., Philip Hitti , History of the Arabs , p . 311 .

وقد ظلت أسرة «بختيشوع»(١) - كما كان شأنها منذ خلافة المنصور - تحتل مكان الريادة فى الطب الإغريقى خلال الفترة موضوع الدراسة . وقد كان يمثلها فى عصر المأمون جبريل بن بختيشوع بن جورجيس ، ثم ابنه بختيشوع بن جبريل(٢) . والجدير بالذكر هنا أن هذه الأسرة السريانية النسطورية تنتمى إلى مدرسة جند يسابور الطبية التى أنشأها الامبراطور الفارسى كسرى أنوشروان فى حوالى ٥٥٥م لتكون مركزا لدراسة الطب الإغريقى(٣) . واستطاع النساطرة الذين تعرضوا للاضطهاد الدينى فى الامبراطورية البيزنطية أن يجدوا لهم ملاذا فى جند يسابور وغيرها من مراكز الثقافة فى الامبراطورية الفارسية ، فازدهرت دراسة الطب الإغريقى على أيديهم(٤) . وبعد الفتح الإسلامى خضعت هذه المراكز ، بكل تقاليدها العلمية الراسخة ، لسلطان الدولة الإسلامية . وقد استطاع العباسيون أن يستثمروا مدرسة جند يسابور الطبية ، ذات الموروثات الإغريقية الهائلة ، على أحسن صورة ممكنة ، فوصلتهم هذه المدرسة بكنوز الثقافة الطبية اليونانية ، واستطاعت أن تنقل لهم عيون التراث الإغريقى فى هذا المجال . يروى ابن أبى أصيبعة أن المأمون لما عزم على الخروج إلى بلد الروم كان جبريل بن بختيشوع بن جورجيس مريضا ، «فلما رآه المأمون ضعيفا التمس منه إنفاذ بختيشوع ابنه معه إلى بلد الروم ، فأحضره ، وكان مثل أبيه فى الفهم والعقل والسَّرْو . ولما خاطبه المأمون وسمع حسن جوابه فرح به فرحا شديدا وأكرمه غاية الإكرام ورفع منزلته وأخرجه معه إلى بلد الروم»(٥) . ويذكر ابن أبى أصيبعة أيضا أن بختيشوع هذا «بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال مالم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا فى عصره ، وكان يضاهى المتوكل فى اللباس والفرْش»(٦) . وفضلا عن

(١) بختيشوع كلمة سريانية معناها عبد المسيح ، وهى تتكون من شقين : بخت ، بمعنى عبد ؛ ويشوع بمعنى المسيح عليه السلام . انظر طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، جـ ٢ ، ص ٤١ .

(٢) راجع : طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ٤٦ ، ٥٨ .

(٣) Philip Hitti, op. Cit., P. 309.

(٤) راجع الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الثقافى للدكتور فتحى عثمان ، جـ ٣ ، ص ٢٥٩ . وانظر أيضا مادة «جند يسابور» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم سايبلى .

(٥) طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

صحبة بختيشوع للمأمون فإنه خدم لدى الواثق والمتوكل ، وتوفى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)(١) .

نخلص مما مضى إلى أن بيزنطة مثلت مصدرا مهما للتأثير اليونانى الكلاسيكى على الثقافة العربية الإسلامية فى مجالات الفلسفة والمنطق والطب فى عصر المأمون .

فإذا جئنا إلى مجال آخر هو مجال التأثير الدينى وجدنا الأمر مختلفا غاية الاختلاف . وينبغى أن نتذكر هنا ماسبق أن قلناه من أن حكم الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨١٣ - ٨٣٣م) تزامن فى بيزنطة مع عهود ثلاثة هى عهد الامبراطور ليو الخامس الأرمينى وميخائيل الثانى وجزء من عهد ثيوفيل . ومن المعروف أن أول هؤلاء الأباطرة هو الذى بدأ المرحلة الثانية من مرحلتى الصراع اللاأيقونى Iconoclasm فى الامبراطورية البيزنطية فى سنة ٨١٥م(٢) . أما خليفتاه ميخائيل الثانى وثيوفيل فقد شغلا حكميهما بتطورات هذا الصراع وما أسفر عنه من أزمات داخلية طاحنة . وقد قامت الحركة الدينية اللاأيقونية فى بيزنطة - كما هو معروف - على مقاومة الاتجاه نحو تشخيص السيد المسيح وأمه مريم البتول فى أيقونات وصور وتماثيل وإضفاء القداسة الدينية على هذه الرموز التصويرية . وقد كان أول من بدأها فى طورها الأول سنة ٧٢٦م هو الامبراطور ليو الثالث الأيسورى الذى نشأ فى مدينة مرعش على الحدود السورية(٣) ، مما قد يدفع إلى القول بأن الحركة اللاأيقونية منذ بداياتها الأولى كانت واقعه تحت تأثير إسلامى واضح .

وعلى الجانب الإسلامى تبنى المأمون قضية دينية شديدة الشبه بمشكلة اللاأيقونية وتلك هى قضية خلق القرآن ؛ وهى المرتبطة بالمفهوم الحقيقى للتوحيد من وجهة نظر المأمون وأنصاره . لقد وقف المعتزلة إلى جانب المأمون فى هذه القضية ، وكان المأمون نفسه واحدا منهم ، أى أنه كان معتزليا بالمفهوم الاصطلاحى لهذه الكلمة . ولهذا حول المأمون مذهب المعتزلة إلى مذهب رسمى للدولة وأخذ فى عرض وجهات نظر هذا المذهب بكل ما تحت يده من وسائل . وتجدر الإشارة إلى أن مذهب المعتزلة تزامن فى نشأته الأولى تقريبا مع

(١) راجع مادة «بختيشوع» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بروكلمان . جـ ٦ ، ص ٣٨٤ .

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 202 .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٩ ، ص ١٨٢ .

مذهب اللاأيقونية فى بيزنطة ، أى فى أواخر العصرالأموى(١) . أما مايُعَدُّ جديدا فى الطور الحالى للاعتزال واللاأيقونية – أى خلال حكم المأمون – فهو الموقف الرسمى نحو هذين المذهبين . لقد كان المأمون معتزليا صميما كما سبق القول ، ومن هنا فإنه أخذ مسألة اعتناق الناس للقضايا الكبرى فى هذا المذهب على أنها قضية إيمان واعتبر المعارضين لهذه القضايا الأساسية من وجهة نظره خارجين عن حظيرة الدين الصحيح .

وقد تبنى الأباطرة البيزنطيون المشار إليهم آنفا – وعلى وجه أخص الامبراطور ثيوفيل – وجهة نظر شبيهة بوجهة نظر المأمون . ولقد كان ثيوفيل بالذات متشددا فى اعتناقه لمذهب اللاأيقونية ، ومن هنا اعتبر معارضيه الأيقونيين وثنيين يستحقون أبشع صور العقاب .

والجدير بالذكر أن قائد جناح المعارضة ضد الحركة اللاأيقونية فى طورها الثانى كان الراهب الشهير ثيودور الاستوديى Theodore the Studite (ت : ٨٢٦م) الذى تعرض للاضطهاد والنفى مرات عديدة بسبب عقيدته الراسخة فى الأيقونات(٢) . أما قائد جناح المعارضة ضد المأمون فقد كان إمام الفقه الذائع الصيت أحمد بن حنبل الذى تعرض هو أيضا لاضطهاد المأمون ثم بوجه أخص لاضطهاد خليفته المعتصم . ولقد كان يقف بجانب المأمون مفكر ومنظِّر معتزلى طويل الباع هو أحمد بن أبى دُوَاد الذى كان المصمم الحقيقى لسياسة المأمون الاعتزالية والذى عينه المأمون مستشارا له(٣) . أما ثيوفيل فقد كان يقف بجانبه فى صراعه الدينى هذا مفكر لأيقونى قدير هو يوحنا النحوى John the Grammarian الذى لعب الدور الأساسى فى سياسة الامبراطور اللاأيقونية والذى قلده الامبراطور فى وقت لاحق منصب بطريرك القسطنطينية(٤) .

ولكن هناك سؤالين ينبغى طرحهما هنا : أولهما : هل كانت هناك ملامح مشتركة بين

(١) نشأ مذهب المعتزلة بصورته المحددة الملامح – كما هو معروف – على يد واصل بن عطاء المولود سنة ٨٠هـ والمتوفى سنة ١٣١هـ . راجع ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٦ ، ص ٧ ومابعدها . ولكن ابن خلكان يذكر أن وفاته كانت فى سنة ١٨١هـ ، والصحيح ما ذكرناه . وراجع فجر الإسلام لأحمد أمين ، ص ٢٩٦ .

(٢) العالم البيزنطى ، تأليف ج . م . هسّى ، ترجمة د . رأفت عبد الحميد ، ص ١٣٨ .

(٣) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ، ص ٨١ – ٩١ .

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., pp. 203 FF.

المعتزلة واللاأيقونيين؟ وثانيهما : هل كان هناك أى تأثير متبادل بين المأمون وثيوفيل فى مواقفهما الدينية؟

وبخصوص السؤال الأول فإن الإجابة لابد أن تكون بالإيجاب . لقد كانت هناك ملامح مشتركة وقوية بين المعتزلة واللاأيقونيين . وأول هذه الملامح وأهمها أن كلا من الجانبين اعتمد على العقل فى تقرير بعض القضايا الدينية الأساسية . وثانى هذه الملامح – وهو مترتب على الأول – أن كلا من الجانبين رفض الأفكار والممارسات التى كان من شأنها أن تنحرف بالناس عن عبادة الله الحق من وجهة نظرهم . ومن ثم فإن كلا منهم وقف ضد تجاوزات المشاعر الدينية لدى الجماهير . لقد رفض اللاأيقونيون رفضا قاطعا تقديس الأيقونات والصور الدينية لأن ذلك التقديس من شأنه أن يحوّل الأيقونات والصور والرموز الدينية إلى ما يشبه الأوثان . وبالمثل رفض المعتزلة فكرة قدم القرآن لأن هذه الفكرة تعنى وجود قديم مع الله ، والله وحده هو الموصوف بالقدم . ولو اشترك معه غيره فى هذه الصفة لأدى ذلك إلى تعدد القدماء ، وهذا شرك محض . ومع أن مذهب المعتزلة قام على أصول خمسة فإن أول هذه الأصول وركنها الركين هو التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى ، التوحيد الخالى من أية شبهة أو شائبة . وهكذا كان القول بقدم القرآن من وجهة نظرهم تهديدا حقيقيا لمبدأ التوحيد المطلق ؛ ومن هنا وقفوا ضده بكل حزم . ومن هذا يتضح أن المبادئ كانت متشابهة جدا لدى المعتزلة واللاأيقونيين ، كما كانت طرق تطبيقها والدفاع عنها على نفس الدرجة من التشابه . وثالث هذه الملامح أن المعتزلة واللاأيقونيين لم يروا أى تناقض بين مسائل الدين البحت وبين وجوه المعرفة الدنيوية الخالصة . ومن ثم فإنهم أفسحوا صدورهم لدراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات والفنون الجميلة وغير ذلك من صنوف المعرفة . ويُعَدُّ المأمون وثيوفيل خير نموذجين لذلك .

ونأتى الآن للسؤال الثانى : هل كان هناك تأثير متبادل بين الخلافة وبيزنطة فى هذه القضية الدينية؟

بالقطع لا يمكن الادعاء بأن أحد الجانبين اتخذ خطوات مباشرة ليدعم الجانب الآخر أو يؤثر عليه فى هذا الموقف الدينى المتطرف . بل إننا نرى على العكس من ذلك أن المأمون أخذ جانب توماس الصقلبى فى ثورته ضد الامبراطور اللاأيقونى ميخائيل الثانى رغم أن توماس كان أيقونيا متعصبا . والذى يبدو لنا بوضوح أنه لم يكن هناك تأثير إسلامى قوى

على مجرى الصراع اللاأيقونى خلال حكم الامبراطور ليو الخامس وميخائيل الثانى . ولكن قد يكون من حقنا أن نزعم أنه كان هناك تأثير إسلامى إلى درجة ما على الموقف اللاأيقونى للامبراطور ثيوفيل . فلابد لنا أن نلاحظ أن ثيوفيل لم ينظر إلى اللاأيقونية على أنها قضية سياسية فى الأساس بل اعتبرها قضية دينية بالدرجة الأولى وحاول أن يبررها بالمنطق الدينى . ومن هنا فإنه جمع حوله كبار المفكرين اللاأيقونيين وعلى رأسهم يوحنا النحوى(١) . واللافت للنظر أن هذا هو ما فعله المأمون فى نفس الوقت أو قبل ذلك بقليل . ولقد كان هدف المأمون أن يغرس العقيدة الصحيحة وكان سبيله إلى ذلك أولا هو الحوار المنطقى الهادئ ، فإن لم يأت الحوار بثمرته المرجوة اتخذ القوة سبيلا إلى الإقناع . وقد كان هذا هو ما فعله ثيوفيل تقريبا . إن مما قد يدفعنا إلى الاعتقاد بأن ثيوفيل تأثر بالمأمون فى سياسته الدينية هو تلك الحقيقة التى لا يجحدها أحد وهى أن المنافسة بين هذين الحاكمين كانت على أشدها فى مجالات مختلفة . والجدير بالملاحظة حقا أن المأمون وثيوفيل يقدمان لنا مثالا لحاكمين معاصرين يمكن بمنتهى اليسر أن يقارن أحدهما بالآخر من وجوه عدة . ففى قضايا الدين لم يكتف المأمون وثيوفيل باتخاذ مواقف متشابهة بل إنهما استخدما وسائل متشابهة أيضا فى تأييد تلك المواقف . وفى مجال المعرفة والأنشطة الذهنية قدّم كل منهما أبرز مثال للحاكم المتفتح المثقف على مستوى تاريخ الخلافة وبيزنطة . وفى المجال العسكرى نزل كل منهما بنفسه إلى الميدان ليقود الجيوش ويحرز الانتصارات . والذى نرجحه أن ثيوفيل كان يتخذ المأمون مثالا يحاول أن يحذو حذوه فى كل المجالات الممكنة . فلا غرو إذن أن يكون فى موقفه الدينى – وعلى الأخص فى أساليب الدفاع عن هذا الموقف – متأثرا إلى حد لا ينكر بالخليفة المأمون .

إن مما يزيد هذا الافتراض تعزيزا هو ما نعرفه من التبادل بين الخلافة وبيزنطة فى عهد ثيوفيل فى مجالين آخرين من المجالات الثقافية هما مجالا الفن والمعمار . ولا حاجة بنا هنا إلى أن نؤكد أن الإسلام لا يبيح إضفاء القداسة على الصور والتماثيل ، بل إن الإسلام ينظر إلى هذه الصور والتماثيل عموما نظرةً أقل ما توصف به أنها خالية من التشجيع ، وذلك لما قد يؤدى إليه استخدام هذه الصور والتماثيل من تقديس لها أو للموضوعات التى ترمز إليها ؛

(١) حول السياسة الدينية للامبراطور ثيوفيل والدور الذى لعبه يوحنا النحوى فى هذا الصدد راجع :
- A.A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 286 - 287 .

وهذا نوع من الوثنية يحاربه الإسلام بحسم . ومن أجل ذلك كان على الفنان المسلم أن يبحث عن مجالات أخرى للتعبير عن فنه . وقد كان الخط والرسوم الهندسية من أهم المجالات التى تبناها الفنان المسلم وأبدع فيها . ولهذا حفلت قصور الخلافة بصور رائعة من هذين الفنّين الجميلين . ومما هو بعيد الدلالة هنا أن ثيوفيل على وجه الخصوص أبدى اهتمامه الشديد بتبنى هذا الطراز من الفنون الجميلة فى تزيين قصوره المتعددة فى القسطنطينية وغيرها من مدن الامبراطورية(١) . وهذا قد يدفعنا إلى أن نستنتج أن ثيوفيل – فى تبنيه لهذا الاتجاه – كان واقعا تحت تأثير الفن الإسلامى .

٢ - أهم قنوات الاتصال الثقافى :

ناقشنا حتى الآن الجوانب الأساسية للاتصال الثقافى بين الخلافة وبيزنطة فى عصر الخليفة المأمون . وبقى أمامنا أن ننظر فى أهم القنوات التى تم عن طريقها هذا الاتصال .

ولاشك أن حركة الترجمة جاءت على رأس هذه القنوات . وهذه الحركة – كما سبقت الإشارة – بدأت قبل عصر المأمون بوقت طويل . ولكن ما أضافه المأمون إليها أنه نظمها وأعطاها شكلا أكثر تأثيرا . وقد لعب «بيت الحكمة» فى عصر المأمون دورا أساسيا فى هذا المجال . ولسنا هنا فى مقام يسمح لنا بالحديث المفصّل عن نشأة بيت الحكمة ولا عن مؤسساته المختلفة . فهذا يخرج بنا عن دائرة هذا البحث(٢) . ولكن ما تنبغى الإشارة إليه هنا أن بيت الحكمة ضم بين أقسامه الرئيسية قسما للترجمة كانت مهمته ترجمة كل عيون التراث الإنسانى إلى اللغة العربية . وقد حظى التراث اليونانى ، بمجالاته المختلفة ، بالنصيب الأكبر من اهتمام قسم الترجمة ببيت الحكمة ، وذلك بتوجيه من الخليفة نفسه . وقد

---

(١) H.W. haussig, A. History of Byzantine Civilization, P. 170 . See also, Robin Cormack, "The Arts during the Age of Iconoclasm", an article Published in, "Iconoclasm", University of Birmingham, P. 43 .

(٢) حول تاريخ إنشاء بيت الحكمة راجع هذه المادة فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم سوردل Sourdel ، جـ ٨ ، ص ٤٩٨ ، ويرجح سوردل أن مكتبة بيت الحكمة أنشئت فى خلافة الرشيد . ولعل ازدهار نشاط بيت الحكمة فى عصر المأمون هو الذى جعل بعض الباحثين ينسب تأسيسه إلى المأمون . انظر مثلا :

- Philip Hilli, History of the Arabs, P. 410, S. Cobb, Islamic Contributions to Civilization, P. 18 .

أمد المأمون هذا القسم بهيئة دائمة من المترجمين الذين أثبتوا كفاءة فى هذا المجال وتلقوا المكافآت السخية من الخليفة . ومما يروى فى هذا الصدد أن شيخ المترجمين فى بيت الحكمة - وهو حنين بن إسحاق(١) - كان يتقاضى من الخليفة وزن ما يترجمه ذهبا(٢) . وإذا سمحنا بوجود قدر من المبالغة فى هذا الخبر فإن الذى لا جدال فيه على أى حال هو ما يشير إليه ذلك من المكانة العظيمة التى تبوأها المترجمون فى ذلك العصر . والملاحظ أن معظم هؤلاء المترجمين كانوا من أصل سريانى وكانوا يتقنون اللغات الثلاث : العربية والسريانية واليونانية(٣) . ومما يروية القفطى بصدد حديثه عن حنين بن اسحاق أنه «لزم الخليل بن أحمد حتى برع فى اللسان العربى ... وتعلم لسان اليونانية بأصله ، وكان جليلا فى ترجمته»(٤) . والملاحظ أن مجالات الترجمة فى عصر المأمون اتسعت لتشمل كل وجوه المعرفة الإنسانية تقريبا ، مع أن الأعمال الفلسفية والعلمية حظيت بنصيب متميز من اهتمامات المترجمين .

ومن حقنا هنا أن نسأل : كيف استطاع هؤلاء المترجمون الحصول على الكتب اليونانية التى قاموا بترجمتها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى الحديث عن قناة أخرى مباشرة من قنوات الاتصال الثقافى بين الخلافة وبيزنطة ، وهى المتمثلة فى الرحلات العلمية(٥) .

لقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد استطاع - فى بعض غزواته ضد الروم - أن يحصل على بعض المؤلفات اليونانية التى أمر بترجمتها إلى العربية . ولكن المأمون مضى خطوة أبعد من هذه ؛ ذلك أنه أرسل البعثات المنظمة إلى بلاد الروم - ولابد أن ذلك كان باتفاق مع السلطة الحاكمة هناك - للبحث عن المصادر المهمة والقيام بترجمتها . يقول ابن خلدون فى ذلك : «وجاء المأمون ... وكانت له فى العلم رغبة بما كان ينتحله ، فانبعث لهذه العلوم

(١) راجع ترجمته فى الفهرست لابن النديم ، ص ٢٩٤ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ ، وأخبار الحكماء للقفطى ، ص ١١٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .

(٤) أخبار الحكماء ، ص ١١٨ .

(٥) راجع الحدود الإسلامية البيزنطية لفتحى عثمان ، جـ ٣ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب ، وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها»(١) . وحين يروى ابن أبى أصيبعة قصة الحلم الذى رأى فيه المأمون أرسطو يعلق قائلا : «فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب ، فإن المأمون كتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونه ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلْماً صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم »(٢) . وليس لنا – بالطبع – أن نعتقد أن إيفاد المأمون للرسل إلى بلاد الروم لاستخراج علوم اليونانيين كان نتيجة حلم رأى فيه المأمون أرسطو ؛ بل إنه نتيجة خطة منظمة وضع أسلافه بذورها وتوسع هو فيها وسار بها إلى غايتها . ومما يروى عن حنين بن إسحاق ، الذى خصه المأمون بمزيد من الثقة فى الترجمة من اليونانية إلى العربية(٣) ، أنه «سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التى قصد نقلها »(٤) . وقد قامت بدور متميز فى هذا الصدد أسرة موسى بن شاكر المتمثلة فى أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن . فقد كانوا يذهبون بأنفسهم إلى بلاد الروم أو يرسلون من ينوب عنهم للبحث عن المخطوطات اليونانية هناك . وهكذا يمكن أن تتبوأ هذه الأسرة مكانة خاصة فى تاريخ العلاقات الثقافية

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٨٠ – ٤٨١ .

(٢) طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ . ويوحنا بن ماسويه المشار إليه كان من أساطين الترجمة من اليونانية إلى العربية منذ عصر هارون الرشيد حتى المتوكل . انظر ترجمته فى طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ – ١٣٧ . ولعل ملك الروم الذى يشير إليه ابن أبى أصيبعة فى الاقتباس المذكور هو ميخائيل الثانى الذى حكم من سنة ٨٢٠ إلى سنة ٨٢٩م . فقد بعث المأمون إلى بلاد الروم «من عرَّب له كتب الفلاسفة وأتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سنى الهجرة » كما يقول المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٥٧ . وأعوام بضع عشرة سنة ومائتين للهجرة تبدأ من سنة ٨٢٨م . وقد كانت علاقة المأمون بثيوفيل الذى تولى الحكم بعد ميخائيل الثانى (أى من سنة ٨٢٩م) علاقة يسودها التوتر الدائم .

(٣) مما يدل على ذلك أن المأمون لم يكتف بإسناد بعض المصادر اليونانية المهمة إلى حنين ليترجمها بل إنه أمره بإصلاح ما يترجمه غيره . انظر : طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

بين المسلمين والبيزنطيين . والجدير بالذكر أن المأمون احتضن هؤلاء الإخوة الثلاثة وتعهدهم بالرعاية والتشجيع وأخذ بأيديهم على طريق التفتح العلمى منذ نعومة أظفارهم . فقد مات أبوهم موسى بن شاكر عندما كان هؤلاء الأبناء صغارا ؛ فألحقهم المأمون ببيت الحكمة . وكانت كتبه – وهو فى بلاد الروم – ترد إلى إسحاق بن إبراهيم حاكم بغداد بأن يراعيهم ويسأل عن أخبارهم حتى قال إسحاق : «جعلنى المأمون داية لأولاد موسى بن شاكر !» . فبلغ هؤلاء الإخوة من العلم مبلغا رفيعا بفضل رعاية المأمون لهم(١) . وقد تولى بنو موسى بن شاكر ترجمة العديد من الكتب ذات الموضوعات المتنوعة من هندسة ورياضيات وتنجيم بل وموسيقى أيضا . ومما يسترعى الانتباه أنهم استخدموا مجموعة من المترجمين برواتب مغرية . يقول ابن خلكان فى حديثه عن إسهام أولاد موسى بن شاكر فى هذا المضمار : «كانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل ، وأتعبوا أنفسهم فى شأنها ، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم ، وأحضروا النَّقَلَة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السنىّ ، فأظهروا عجائب الحكمة»(٢) ويذكر ابن أبى أصيبعة أن بنى موسى بن شاكر كانوا يرزقون جماعة من المترجمين – منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم – فى الشهر نحو خمسمائة دينار(٣) .

هذا ؛ وقد بلغت عناية المأمون بجمع المصادر اليونانية لترجمتها مبلغا جعله لا يتوانى فى البحث عنها فى مظانها حيث كانت . وهكذا نقرأ فى بعض مصادرنا أن بعثات المأمون العلمية وصلت إلى جزيرة قبرص وصقلية ونجحت فى استخراج بعض المخطوطات اليونانية من هناك(٤) .

وإذا كانت حركة الترجمة وما ارتبط بها من الرحلات العلمية قد مثّلتْ أهم قنوات الاحتكاك الثقافى بين الخلافة وبيزنطة فإننا لا نستطيع أن نغفل هنا قناة أخرى على قدر كبير من الأهمية وهى تلك المتمثلة فى تبادل السفراء . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك تلك البعثة المشهورة التى أرسلها ثيوفيل للمأمون فى حوالى سنة ٨٣٠م برئاسة يوحنا

(١) راجع : تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان ، جـ ٣ ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٥ ، ص ١٦١ . وانظر أيضا : أخبار الحكماء للقفطى ، ص ٢٠٨ .

(٣) طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٧٨ . وانظر أيضا : ضحى الإسلام لأحمد أمين ، جـ ٢ ، ص ٦١ .

النحوى. وقد كان الهدف الأساسى من بعثه يوحنا هو الوصول إلى اتفاقية سلام بين المأمون وثيوفيل. وتتجاهل مصادرنا العربية هذه البعثة رغم مالها من أهمية سياسية وثقافية(١). ولا يهمنا فى هذا المقام أن نناقش الأبعاد السياسية لهذه البعثة؛ ولكن لا ينبغى أن نتجاهل أهميتها على المستوى الثقافى. وربما جاز لنا أن ندعى أن ثيوفيل اختار يوحنا دون غيره نظراً لثقافته الواسعة، ثم لعقيدته اللاأيقونية الراسخة؛ وهى تلك العقيدة التى تتناسب مع منطلقات المأمون الإعتزالية. وأغلب الظن أن يوحنا نجح فى أن ينقل إلى ثيوفيل صورة صادقة لما رآه فى بلاط الخليفة من مظاهر الروعة، ولعل هذه الصورة كانت وراء الحماسة الملحوظة التى أبداها ثيوفيل تجاه الحضارة الإسلامية(٢).

والحق أن الأمر لم يقف بالمأمون عند مجرد الترحيب بأمثال هذه البعثات بل إنه كان يطلبها بنفسه من امبراطور الروم، وبالذات عندما يكون الغرض منها ثقافيا خالصا. ولعل أبرز مثال على ذلك هو ما حدث بين المأمون والامبراطور ثيوفيل بخصوص العالم البيزنطى الشهير ليو الرياضى: Leo the Mathematician. لقد وصلت شهرة هذا العالم الرياضى الكبير إلى بلاط المأمون، ومن ثم أرسل خطابا شخصيا إلى ثيوفيل يسأله فيه أن يرسل ليو إلى دار الخلافة فترة قصيرة حتى يقوم بما يمكن أن نسميه الآن بمهمة الأستاذ الزائر. والجدير بالملاحظة هنا أن حرص المأمون على تحقيق هذه الرغبة وصل به إلى المدى الذى جعله يبدى استعداده لعقد اتفاق سلام مع الامبراطورية بالإضافة إلى دفع مبلغ ضخم من المال فى حالة سماحه للعالم البيزنطى أن يقوم بهذه الزيارة(٣). صحيح أن الامبراطور رفض تحقيق رغبة المأمون، ولكن هذا الرفض لا يقلل من الدلالات العميقة لمحاولة المأمون هذه؛ فهى محاولة تكشف بوضوح عن تقديره العميق للفكر والمعرفة وبذل غاية الطاقة من أجل تحصيل العلم من مصادره حيث كانت ولو فى دار الحرب.

بقى أخيرا أن نتحدث عن قناة أخرى من قنوات التبادل الثقافى قد تبدو ضئيلة الأهمية ولكنها ليست كذلك فى حقيقة الأمر؛ وهى ما تمثله عملية تبادل الأسرى بين الجانبين، أو ما يعرف فى مصادرنا باسم الفداء. لقد بدأت عمليات تبادل الأسرى بين المسلمين والروم

(١) See : J. B. Bury : "The Embassy of John the Grammarian", published in : English Historical Review, 24 (1909), pp . 296 - 990 .

(٢) Ostorgorsky, Op. Cit., P. 2o6 .

(٣) Vasiliev, Op. Cit., P. 298 .

بشكل منظم فى العصر العباسى الأول ، وكان أولها فداء غير مشهور وقع فى خلافة المنصور[١] . ثم توالت الأفدية بعد ذلك فى خلافة المهدى والرشيد والأمين والواثق ومن بعدهم[٢] . ورغم أنه لم يقع فداء واحد للأسرى فى خلافة المأمون فإن الأ سرى الذين تم فداؤهم فى خلافة أبيه وأخيه الأمين كان الكثير منهم مايزال حيا . ومما تنبغى الإشارة إليه هنا أن بعض هؤلاء الأسرى كانوا يمكثون سنين طويلة فى أرض العدو إلى أن يتم فداؤهم ، سواء أكانوا من الجانب الإسلامى أم من الجانب البيزنطى[٣] . ولم يكن من الضرورى أن يمكث الأسرى فى سجون العدو بل كانوا يسترقّون فى كثير من الأحيان إلى أن يتم فداؤهم . وهذا كان يتيح للأسرى من الجانبين أن يمتزجوا بالحياة الاجتماعية الجديدة وأن يتأثروا بمناحى ثقافتها إذا كان لديهم الاستعداد الذهنى لذلك[٤] . ونحن نقرأ فى هذا الصدد أن أحد الأسرى الذين أطلق سراحهم فى خلافة الواثق فى سنة ٢٣١هـ (٨٤٥م) – واسمه مسلم بن أبى مسلم الجرمى – كتب «مصنفا فى أخبار الروم وملوكهم وبلادهم[٥]» . وقد كان مصنفه مصدرا لابن خرداذبه فى المسالك والممالك عندما أعد قائمته لأعمال بلاد الروم أو بنودها[٦] .

★ ★ ★

ننهى استعراضنا لحركة الاتصال الثقافى بين الخلافة وبيزنطة فى عصر الخليفة المأمون بالملاحظات الأساسية التالية :

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٧ ، ص ٥٠٠ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ ٥ ، ص ٤٨٨ .

(٢) حول هذه الأفدية ومابعدها راجع خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ١٩١ – ١٩٢ . وانظر أيضاً :
- A. Toynbee, Constantine Porphyrogenitus and his world, pp. 388 - 890 .

(٣) مما قد يستأنس به هنا ما يقوله شاعر الرشيد مروان بن أبى حفصة مادحا الخليفة بمناسبة فداء للأسرى وقع فى سنة (١٨٩هـ – ٨٠٥م) :

وفُكّتْ بك الأسرى التى شُيّدت لها ... محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا سجون المشركين قبورها

انظر : تاريخ الطبرى ، جـ ٨ ، ص ٣١٨ .

(٤) الحدود الإسلامية البيزنطية لفتحى عثمان ، جـ ٣ ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .

(٥) خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ١٩١ .

(٦) الحدود الإسلامية البيزنطية لفتحى عثمان ، جـ ٣ ، ص ٢٦٨ .

أولاً : مثَّل عصر المأمون مرحلة انتقالية فى تاريخ الاتصال الثقافى بين المسلمين والروم . فقد قام المسلمون قبل هذا العصر بدور المتلقى . ولكن عصر المأمون كان بداية انتقال المسلمين من جانب المتلقى إلى جانب المعطى . صحيح أن دور الإعطاء لم يكن غالبا فى تلك الفترة ، ولكنه بدأ يظهر فى بعض الجوانب ليتنامى بعد ذلك حتى يصل إلى مرحلة أصبح المسلمون فيها يمثلون مصدر إشعاع حضارى فى جميع أنحاء العالم .

ثانياً : إن الخلافة وهى فى أوج عظمتها وعنفوانها لم تنغلق على نفسها ولم يصبها داء الغرور فتحتقر ما فى جعبة الآخرين من علم وثقافة . واللافت للنظر حقا أن هذه الفترة بالتحديد شهدت انفتاحا إسلاميا غير مسبوق على الثقافات الأخرى التى مثلت بيزنطة أبرزها فى ذلك الوقت . وهكذا انتعشت حركة الترجمة انتعاشا فريدا ، ولاسيما ترجمة عيون التراث اليونانى الذى كانت بيزنطة موئله الأساسى . كما انتعش ما صاحب هذه الحركة من رحلات علمية إلى بلاد الروم للتنقيب عن المخطوطات . وقد كان من نتيجة ذلك كله أن اقتحم المسلمون مجالات جديدة فى آفاق العلم والمعرفة ، وماجت دار الخلافة بالمدارس الفلسفية والعلمية بعد أن أصبح الفكر الإنسانى متاحا أمام الجميع ينهلون منه ما شاءوا .

ثالثاً : إن الاتصال الحضارى بين المسلمين والروم بدأ بظهور الإسلام ، بل كان هناك اتصال حضارى من نوع ما بين العرب والروم قبل ظهور الإسلام . وقد تدرج هذا الاتصال واتسعت دائرته فى الفترات المختلفة ، حتى جاء المأمون فاستطاع أن يستثمر ما تكون من رصيد سابق فى هذا المجال الحضارى وأن يضيف إليه الكثير بفضل ما تمتع به من خصائص ذاتية . فسارت دولة الخلافة بعد المأمون بخطى شاسعة فى ميدان الإنجازات الحضارية الشامخة .

رابعاً : إن الفترة التى نخصها بالمناقشة – وهى عصر المأمون – شهدت أخطر المشروعات العسكرية العباسية ضد دولة الروم . ولكن ذلك لم يصرف المأمون عن المضى فى مشروع آخر أجل خطرا من مشروعاته العسكرية وهو مشروعه الثقافى . إن هذا يلفت النظر إلى أن هناك مجالا آخر جديرا بالدراسة فى ميدان العلاقات العباسية البيزنطية – فضلا عن المجال العسكرى – وهو المجال الثقافى والحضارى بصفة عامة ، وهو عين المجال الذى تكمن فيه إنجازات المأمون الحقيقية .

قائمة المصادر والمراجع

ا - عربية ومترجمة :

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم):

عيون الأبناء فى طبقات الأطباء . دار الثقافة - بيروت - ١٩٨٧م .

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم) :

الكامل فى التاريخ . دار صادر - بيروت - ١٩٨٢م .

إحسان عباس :

الحسن البصرى . القاهرة - دار الفكر العربى - الطبعة الأولى (بدون تاريخ) .

أحمد أمين :

ضحى الإسلام . القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٣٥م .

فجر الإسلام . القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٩م .

أوليرى (ديلاسى) :

مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة د . تمام حسان . القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٧م .

بروكلمان (كارل) :

مادة «بختيشوع» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، جـ ٦ . القاهرة - دار الشعب .

جرجى زيدان :

تاريخ التمدن الإسلامى - تعليق د . حسين مؤنس - القاهرة - دار الهلال - ١٩٦٨م .

ابن خلدون(عبد الرحمن) :

المقدمة – القاهرة – المكتبة التجارية الكبرى (بدون تاريخ) .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق د . إحسان عباس . دار صادر – بيروت – ١٩٧٧م .

الرشيد بن الزبير (القاضى) :

الذخائر والتحف – تحقيق د . محمد حميد الله – الكويت – ١٩٥٩م .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :

تاريخ الخلفاء – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة – دار الفكر العربى – ١٩٨٨م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :

تاريخ الرسل والملوك – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة – دار المعارف – ١٩٧٩م .

فتحى عثمان :

الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، جـ ٣ . القاهرة – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف) :

إخبار العلماء بأخبار الحكماء – القاهرة – مكتبة المتنبى (بدون تاريخ) .

ابن كثير (أبو الفدا الحافظ) :

البداية والنهاية – تحقيق د . أحمد أبو ملحم وآخرين . دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٥م .

المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) :

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - القاهرة - بولاق - ١٢٧٠هـ .

ابن النديم (محمد بن اسحاق) :

كتاب الفهرست - ليبزج ١٨٧١-١٨٧٢م .

هسّى (ج . م) :

العالم البيزنطى - ترجمة د . رأفت عبد الحميد - القاهرة - دار المعارف - ١٩٨٤م .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) :

تاريخ اليعقوبى - طبعة هوتسما - ليدن - ١٨٨٣م .

٢ - أجنبية :

- **Ali (S . Ameer) :**

  A Short History of the Saracens . London, 1961 .

- **Bury (J . B) :**

  The Embassy of John the Grammarian, published in : English Histroical Review, 24 (1909), pp . 296 - 99 .

- **Cobb (S.) :**

  Islamic Contributions to Civilization . Washington, 1965 .

- **Cormack (R.) :**

  The Arts during the Age of Iconoclams, published in : Iconoclasm, University of Birmingham, 1977 .

- **Haussig (H. W.) :**

  A History of Byzantine Civilization . London, 1971 .

- **Hitti (Ph. K.) :**

  History of the Arabs . London, 1970 .

- **Lemerle (P.) :**

  Thomas Le Slave, published in : Trauvaux et Memoires, Vol . I (1965), pp. 255 - 297 .

- **Ostrogorsky (G.) :**

  History of the Byzantine State . Oxford, 1968 .

- **Runciman (S.) :**

  A History of the first Bulgarian Empire . London, 1930 .

- **Toynbee (A.) :**

  Constantine Porphyrogenitus and his world . London, 1973 .

- **Vasiliev (A. A.) :**

  Byzantium and Islam, published in : Byzantium, an Introduction to East Roman civilization . ed. N. H. Baynes and H. Moss . Oxfond, 1948 . pp. 308 - 325 .

- **Vasiliev (A. A.) :**

  History of the Byzantine Empire . wisconsin, 1958 .